﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾

[الكهف: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سلامةُ الدّينِ مقدَّمةٌ على سُكنى الأوطانِ

لمّا استدلَّ الفِتْيةُ في الآيات السابقة على صحة معتقَدِهم، وعَلِموا سَفَهَ مَنْ خالفَهم مِنْ قومِهم، وأنهم لا قِبَلَ لهُم بمقاومتِهم لكثرتِهم، جاءت هذه الآيةُ لتبين لهم سبيل الحفاظ على دينهم بِهِجْرتِهم لهم، واعتزالهم لما يعبدون من دون الله؛ فألهمهم الله أن يأووا إلى الكهف؛ ليَسلَمَ لهُم دينُهم[1]، ولينشر لهم من رحمته.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾: (عزل) "أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تنحيةٍ وإمالةٍ، تقول: عَزَلَ الإنسانُ الشيءَ يَعزِلُهُ، إذا نحّاهُ في جانبٍ، وهو بمَعْزِلٍ وفي مَعْزِلٍ مِنْ أصحابِه، أي: في ناحيةٍ عنهُم، والعُزْلةُ: الاعتزالُ، والرَّجلُ يَعزِلُ عنِ المرأةِ، إذا لم يُرِدْ ولدَها، ومِنَ البابِ: الأعزلُ: الَّذي لا رُمحَ معَهُ"[2].

والاعتزالُ: تجنُّبُ الشيءِ[3]، فتارةً يكونُ في الظّاهرِ كالاعتزالِ بالبدنِ، قالَ تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ [النساء: 90]، وتارةً في الباطنِ كالاعتزالِ في الاعتقادِ، قالَ: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 48][4]، والاعتزالُ أيضًا: التَّباعدُ والانفرادُ عن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 23، وعلوان، الفواتح الإلهية: 1/ 473.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزل).
(3) الراغب، المفردات: (عزل).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (عزل).

مخالطةِ الشَّيءِ؛ فمعنى اعتزالِ القومِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾: تَرْكُ مخالطتِهم، والتَّباعدُ عن عبادةِ الأصنامِ[1].

2) ﴿فَأۡوُۥاْ﴾: (أوى) "أصلانِ: أحدُهما: التَّجمُّعُ، والثاني: الإشفاقُ"[2]، يقالُ: أَوى إلى كذا يَأْوِي أُوِيًّا ومَأْوًى: انضمَّ إليه، وآواهُ غيرُهُ يُؤْوِيه إيواءً، قالَ ﷻ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]، وقالَ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ [هود: 43]، وقالَ: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: 69][3]، ويقالُ: أَوَيْتُ لفلانٍ آوِي لهُ مَأْوِيَةً، وهو أنْ يَرِقَّ لهُ ويرحمَهُ[4]، ومعنى ﴿فَأۡوُۥاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾: (الْجَؤوا إليه[5]، واجعلوهُ مَأْوًى لكم تُقيمونَ فيه وتأْوُونَ إليه)[6].

3) ﴿يَنشُرۡ﴾: (نشر) "أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فَتْحِ شيءٍ وتشعُّبِه"[7]، ومن ذلك: بسطُ الثَّوبِ والصَّحيفةِ والسَّحابِ والنِّعمةِ والحديثِ، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠﴾ [التكوير: 10] أي: بُسِطَتْ، وقالَ: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ٣﴾ [المرسلات: 3]، أي: الملائكةِ التي تَنشُرُ الرِّياحَ، أوِ الرِّياحِ التي تَنشُرُ السَّحابَ، وقالَ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ١٧﴾ [الفرقان: 47]، أي: جعلَ فيهِ الانتشارَ وابتغاءَ الرِّزقِ، وانتشارُ النّاسِ: تصرُّفُهم وتفرُّقُهم في الحاجاتِ[8]، وأصلُ النَّشْرِ في الأجرامِ، ثمَّ تُجوِّزَ بهِ في المعاني[9]، ومعنى ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾: يَبْسُطْ لكُم مِنْ رزقِه[10].

4) ﴿وَيُهَيِّئۡ﴾: هيَّأَ الأمرَ تهيئةً وتهييئًا: أصلحَهُ، فهو مُهيَّأٌ، والهَيْئَةُ: صورةُ الشيءِ وشَكْلُهُ وحالُهُ[11]، قالَ تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ [آل عمران: 49][12].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أوى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أوى).
(5) الخازن، لباب التأويل: 3/ 159.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 150.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(8) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل، ومجمع اللغة العربية - القاهرة، معجم ألفاظ القرآن الكريم: (نشر).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (بسط).
(10) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 145، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 275.
(11) الزبيدي، تاج العروس: (هيأ).
(12) الراغب، المفردات: (هيأ).

ومعنى ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾: ويُعِدَّ لكُم[1]، ويُسهِّلْ لكُم[2].

5) ﴿أَمْرِكُم﴾: الأمرُ: الشَّأنُ، وجمعُهُ: أُمورٌ، ومصدرُ أمرتُهُ إذا كلَّفتَهُ أنْ يفعلَ شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعالِ والأقوالِ كلِّها، وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123][3].

6) ﴿مِّرْفَقًا﴾: (رفق) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على موافقةٍ ومقاربةٍ بلا عُنْفٍ، ثمَّ يُشتقُّ منهُ كلُّ شيءٍ يدعو إلى راحةٍ وموافقةٍ، ومنهُ: مَرْفِقُ الإنسانِ؛ لأنَّهُ يستريحُ في الاتِّكاءِ عليهِ، والرُّفقةُ - وهم الجماعةُ الَّذينَ يترافقونَ في السَّفرِ - لِما بينَهم مِنَ الموافقةِ، ولأنَّهم إذا تماشَوْا تحاذَوْا بمَرافقِهم[4].

وارتفق بالشيءِ: انتفعَ به واستعانَ[5]، والمِرْفَقُ: ما يُرتفَقُ ويُنتفَعُ بهِ[6]، ومنهُ: قوله تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ أي: ما ترتفقونَ بهِ وتنتفعونَ[7]، وفيه وفي العُضْوِ المعروفِ لغتانِ: فتحُ الميمِ وكسرُ الفاءِ، والعكسُ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَـنْ هـاجـرَ إلى اللهِ تولّاهُ وكفاهُ

في هذه الآية يخاطبُ الفِتْيةُ بعضُهم بعضًا ويقولونَ: وإذ فارقتُم قومَكم وتنحَّيْتُم عنهم جانبًا، وابتعدتُم عن مخالطتِهم، وتباعدتُم عن كلِّ مظاهرِ الشِّركِ والكفرِ، وما عبدتم إلا اللّه الواحد القهار، فالتَجِؤوا إلى غارِ الجبلِ، واجعلوهُ مَأْوًى لكُم تُقيمونَ فيهِ وتأوونَ

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم: (هيأ).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 182.
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، ومجمع اللغة العربية - القاهرة، معجم ألفاظ القرآن الكريم: (أمر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رفق).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رفق).
(6) مجمع اللغة العربية - القاهرة، معجم ألفاظ القرآن الكريم: (رفق).
(7) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 145، والزمخشري، الكشاف: 2/ 707، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 275.
(8) السمين، عمدة الحفاظ: (رفق).

إليهِ؛ يَبْسُطْ لكُم ربُّكم مِنْ رزقِهِ وفضلِهِ، ويسهل لكم من أمركم ما تنتفعون به في حياتكم من أسباب العيش، ويُعِدَّ لكم ما تنتفعونَ بهِ في الدارين[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ اعتزالَ المؤمنِ قَومَه الكُفّارَ ومَعبوديهم، من أسبابِ لُطفِ اللهِ به ورَحمتِه، وإلى أنَّ المشروعَ عند وقوعِ الفِتَنِ في النّاسِ، أن يَفِرَّ العَبدُ منهم خَوفًا على دينِه، كما جاء في الحديثِ: "يوشِكُ أن يكونَ خَيرَ مالِ المسلم غَنَمٌ يَتبَعُ بها شَعَفَ الجِبالِ ومواقِعَ القَطْرِ؛ يَفِرُّ بدينِه مِن الفِتَنِ"[2]، ففي هذه الحالِ تُشرَعُ العُزلةُ عن النّاسِ، ولا تُشرَعُ فيما عداها؛ لِما يَفوتُ بها مِن تَركِ الجَماعاتِ والجُمَعِ، وترشدُ إلى الجمعِ بين التبرّي من الحول والقوةِ، والالتجاءِ إلى اللهِ في صلاحِ الأمرِ، ودعائه بذلك، وبين الثقة باللهِ أنه سيفعل ذلك[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سر التَّعبيرِ بالظرفية ﴿وَإِذِ﴾:

إفـــادةُ معنى السببيَّةِ لاقترانِ الأمرِ بالإيواء إلى الكهفِ بجوابِهِ

عُبِّرَ بالظَّرفِ ﴿وَإِذِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ – وهو متعلِّقٌ بالفعلِ ﴿فَأْوُۥٓا۟﴾ – ليفيدَ معنى السببيَّةِ لاقترانِ الأمرِ بالإيواء إلى الكهفِ بجوابِهِ؛ وهو ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[4]، أي: ولأجلِ اعتزالِكم قومَكم الكفّارَ وما يعبدونَهُ مِنْ دونِ اللهِ، فاتَّخِذوا الكهفَ مأوًى ومكانَ اعتصامٍ يَنشُرْ لكُم ربُّكم مِنْ رحمتِهِ ويُهيِّئْ لكُم مِنْ أمرِكم

(1) الواحدي، البسيط: 13/ 547، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 211، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.

(2) البخاري، صحيح البخاري برقم: (19) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وهو من أفراد البخاري على مسلم.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 14 - 142، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 472، والشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 217.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4503.

مِرْفقًا، وهذا يدلُّ على أنَّ اعتزالَ المؤمنِ قومَهُ الكفّارَ ومعبوديهم مِنْ أسبابِ لُطْفِ اللهِ به ورحمتِهِ[1].

دلالة التعبير بالإضمار في قولِهِ: ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾:

التهوينُ من شأن قومهم، وعدمُ الاحتفاء بهم

آثر القرآنُ الكريم التعبير بالإضمار وهي الهاء في قولِهِ تعالى: ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ بدلًا من الإظهار، فلم يقل: (وإذِ اعتزلتُم قومَكم عَبَدةَ الآلهةِ)[2]؛ وذلك للتهوين من شأنهم وعدم الاحتفاء بهم، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنَ لا يُحابي في الحقِّ أحدًا، ويهجرُ أهلَ الباطلِ وإن كانوا أهلَهُ وعشيرتَهُ.

بلاغةُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغَيْبة:

أهلُ الحقِّ ثابتونَ عليهِ، يتواصَوْنَ بهِ وبالصَّبرِ عليهِ

تظهر بلاغة الالتفات من الخطاب إلى الغَيْبة في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على أنَّ حكاية أقوالِ القائلينَ لا يلزم أنْ تكونَ كلُّها صادرةً في وقتٍ واحدٍ؛ فيجوزُ أنْ يكونوا قالَ بعضُهم لبعضٍ ذلكَ في مقامٍ آخرَ بعدَ اليأسِ مِن ارعواءِ قومِهم عن فتنتِهم، ويجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ في نفسِ المقامِ الَّذي خاطَبوا فيهِ قومَهم بأنْ غيَّروا الخطابَ مِنْ مواجهةِ قومِهم إلى مواجهةِ بعضِهم بعضًا، وهو ضربٌ مِنَ الالتفاتِ، ونكتتُهُ الدّلالةُ على ثباتِهم على الحقِّ، وأنَّهم يتواصَوْنَ بهِ، ويتواصَوْنَ بالصبرِ عليهِ.

وعلى الاحتمالينِ فالقرآنُ اقتصرَ في حكايةِ أقوالِهم على المقصدِ الأهمِّ منها في الدّلالةِ على ثباتِهم دونَ ما سوى ذلكَ ممّا لا أثرَ لهُ في الغرضِ، وإنَّما هو مجرَّدُ قَصَصٍ[3].

سر التعبير بالاعتزال دون غيره:

آثر القرآن الكريم التعبير بالاعتزال دون غيره، كالهجر

(1) ابن جزي، التسهيل: 1/ 460، والشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 2017.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 617، والواحدي، البسيط: 13/ 547، والبغوي، معالم التنزيل: 3/ 182.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.

والمفارقة؛ لأن الاعتزال هو تجنُّب الشيءِ عُمالةً كانت أو براءة أو غيرهما بالبدن كان ذلك أو بالقلب، وعلى هذا يكون الاعتزال في الظاهر والباطن للبدن والاعتقاد، ولذلك استعمله القرآن الكريم أكثر في أمر الاعتقاد، قال تعالى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 48]، وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾ [النساء: 90]، واستعمل أيضًا في مفارقة البدن، قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البقرة: 222][1]، بخلاف المفارقة فإنها تكون في الأبدان أكثر، قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ [الكهف: 78]، أما الهَجْر فهو أعم منهما؛ لأنه يكون بالبدن أو اللسان أو القلب، قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34].

جمعُه معنى المفارقة وعدم المخالطة في الظاهر والباطن

والملاحظ مما سبق أن التعبير بالاعتزال هو المناسب في هذا السياق؛ لجمعه معنى المفارقة وعدم المخالطة في الظاهر والباطن، ويلزم من ذلك عدم الرضا بما يعبده قومهم، وهذا أمر قلبي لا يتأتى إلا بالتعبير بالاعتزال، ومما يؤكد ذلك مجيئه على صيغة الافتعال، التي تحمل معنى التكلُّف، وبذل الجهد للوصول إلى المراد.

دلالة التعبير بالماضي ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾:

تحقق الاعتزال في قلوب الفتية قبل ظهوره على أبدانهم

عبر القرآن الكريم بالفعل الماضي ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾؛ للدلالة على تحقّق الاعتزال في قلوبهم قبل ظهوره على أبدانهم.

معنى الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾:

اعتزال الفتية لكلّ ما يتعلَّقُ بالشِّركِ وأهلِهِ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾ للعطفِ، إذ عطفت هذه الجملة على الهاءِ في ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾، والمعنى: وإذِ اعتزلتُموهم واعتزلتُم معبوديهم أو عبادتَهم[2]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنَ الحريصَ على سلامةِ دينِهِ وإيمانِهِ يعتزلُ كلَّ مظاهرِ الشِّركِ والكفرِ.

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (عزل).
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 707، وابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/ 501.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾:

احتمالُ (ما) الموصولية والمصدرية والنَّفي

آثر القرآن التعبير بـ ﴿وَمَا﴾ دون غيرها في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ لتعدد المراد بها، فيجوزُ فيها ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أنْ تكونَ موصولة بمعنى (الذي)، والعائدُ مقدَّرٌ، أي: واعتزلتُم الذي يعبدونَهُ.

والثاني: أنَّها مصدريَّةٌ، أي: واعتزلتُم عبادتَهم، أي: تركتُموها.

والثالث: أنَّها نافيةٌ، وأنَّهُ مِنْ كلامِ اللهِ تعالى يُخبِرُ به عن الفِتْيةِ أنَّهم لم يَعبُدوا غيرَ اللهِ، وعلى القول الأخير فهذهِ الجملةُ معترِضةٌ في أثناءِ القصَّةِ لتحقيقِ اعتزالِهم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قولِهِ: ﴿يَعْبُدُونَ﴾:

استمرارُ كفرِ قومِ الفِتْيةِ المؤمنين

اختيرَ لفظُ المضارعِ ﴿يَعْبُدُونَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ لبيانِ استمرارِهم على كفرِهم وعبادتِهم للأصنامِ والأوثانِ، والإشعارِ بأنَّ ذلكَ دَيْدَنٌ لهؤلاءِ القوم لا ينقطعونَ عنهُ بحالٍ، وفي هذا دليل على أن قومَ الفِتْيةِ قد أُشرِبوا في قلوبِهم عبادةَ الأصنامِ.

دلالةُ الاستثناءِ في الآية الكريمة:

احتمالُ الاستثناءِ الاتصال أو الانفصال أو بمعنى غير

يَحْتَمِلُ الاستثناءُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ثلاثةَ أوجهٍ:

الأوَّلُ: أنْ يكونَ منقطعاً، ويكون المعنى أنَّ الكفّارُ الذينَ فرَّ أهلُ الكهفِ منهم لا يعرفونَ اللهَ، ولا علمَ لهُم بهِ، وإنَّما يعتقدونَ الأُلوهيَّةَ في أصنامِهم فقطْ.

والثاني: أنْ يكون متصلاً، والمراد أنهم كانوا يعرفونَ اللهَ ويُعظِّمونَهُ كما كانَتْ تفعلُ العربُ بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، لكنَّهم يُشرِكونَ أصنامَهم معَهُ في العبادةِ[2].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 275، والسمين، الدر المصون: 7/ 454.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 501، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 211، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 210.

والثالثُ: أنَّ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (غير)، مِنْ غيرِ تقحُّمٍ في المتَّصلِ أوِ المنقطعِ، ومِنْ غيرِ ادِّعاءٍ لا دليلَ عليهِ؛ وهو أنَّهم كانوا يعبدونَ معَ اللهِ غيرَهُ؛ فإنَّ ذلكَ يحتاجُ إلى سندٍ تاريخيٍّ، كما هو ثابتٌ عندَ العربِ[1].

سرُّ التعبيرِ بلفظِ الجلالةِ في الآية:

التمسك بالتوحيد ونبذ الشرك

ولمّا كانَ سياقُ الآيةِ للحديثِ عنِ التمسُّكِ بالتوحيدِ والإيمانِ، ونبذِ الشِّركِ وعبادةِ الأوثانِ - ناسبَ ذلكَ الإتيانُ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الدالِّ على واجبِ الوجودِ، الذي لهُ صفاتُ الكمالِ، المستحِقِّ للعبادةِ[2]؛ ليقعَ في ذِهنِ السّامعِ تقابلٌ بينَ اعتزالِ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ، وإيقاعِ العبادةِ لمستحِقِّها.

معنى الفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾:

للتَّفريعِ على الجملة قبلها، أو مضمَّنة معنى الشَّرطِ

آثر التعبير القرآنيُّ الإتيانَ بالفاء في قولِهِ تعالى: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾، وذلك لتعدد معانيها:

فيَحْتَمِلُ أن تكون الفاءُ للتَّفريعِ على جملة ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ باعتبارِ إفادتِها معنى: اعتزلتُم دينَهم اعتزالًا اعتقاديًّا، فيُقدَّرُ بعدَها جملةٌ؛ نحوُ: اعتزلوهم اعتزالَ مفارقةٍ فَأْووا إلى الكهفِ، أو يُقدَّرُ: وإذِ اعتزلتُم دينَهم يُعذِّبونَكم فَأْووا إلى الكهفِ، وعلى هذا يكونُ ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ على حقيقتِهِ[3].

وقيلَ: ﴿وَإِذِ﴾ مضمَّنةٌ معنى الشَّرطِ، وجوابُها: ﴿فَأۡوُۥٓاْ﴾؛ كما يقالُ: (إذْ أذنبتَ فاستغفرِ اللهَ وتُبْ إليهِ)[4]، وعلى هذا يتعيَّنُ أنْ يكونَ ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ مُستعمَلًا في إرادةِ الاعتزالِ[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4503.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 24.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.
(4) الفراء، معاني القرآن: 2/ 136، وابن جرير، جامع البيان: 17/ 617.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.

دلالةُ الأمرِ في فعل الإيواء:

النُّصح والمَشورة

جاء التعبير بالأمر في قوله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ على معنى النصح والمشورة وليس على الحقيقة؛ لأن السياق يدل على ذلك، حيث صدر ذلك من الفِتْيةِ عندما علموا أنَّ قومَهم مُصِرّونَ على كفرِهم، وأَيِسوا بعدَ المراجعةِ مِنْ رجوعِهم عن غَيِّهم وباطلِهم إلى الحقِّ والتوحيدِ قالَ بعضُهم لبعضٍ على سبيلِ النُّصحِ والمَشورةِ الصّائبةِ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾[1].

سرُّ إيثارِ الفعلِ ﴿فَأْوُۥٓاْ﴾ على غيرِه:

لجمعه بين الإيواء والكفاية

آثر القرآنُ التعبيرَ بالإيواء في قوله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، وذلك لما يحمله هذا اللفظ من معنى يتناسب والسياق القرآني؛ فهو يدلُّ على الملاذ والملجأ والحماية، وهذا هو المناسب للسياق في حديث فتية الكهف عندما قال بعضُهم لبعضٍ: إذ فارَقْتنا الكفّارَ، وانفرَدْنا باللهِ تعالى - فلنجعلِ الكَهْفَ مأوًى لنا، ونتَّكلْ على اللهِ تعالى؛ فإنَّهُ سيَبسُطُ لنا رحمتَهُ، ويَنشُرُها علَيْنا[2]، وفيه دفعٌ لِما قد يعترضُهم مِنْ وساوسِ الشَّيطانِ؛ مِنْ أنَّهم يفارقونَ قومَهم إلى مكانٍ وليسَ معَهم شرابٌ ولا طعامٌ؛ فيُهلِكونَ أنفُسَهم[3]؛ فيكونُ في اختيارِ التعبيرِ بالفعلِ ﴿فَأْوُۥٓاْ﴾ الدالِّ على جعلِهم الكَهْفَ مأوًى لهم إشارةٌ إلى أنَّهم يريدونَ اعتزالَ قومِهم فترةً ليسَتْ باليسيرةِ، وأنَّهم مع ذلكَ واثقونَ بإمدادِ اللهِ تعالى لهم بما يحتاجونَ إليه خلالَ هذهِ الفترةِ الطويلةِ.

وفيه إشارة إلى شدة تمسكهم بدينهم، حيث عزموا على ترك الملذات وما هم فيه من سبل النعيم، ورضوا بدلًا من ذلك بالإيواء إلى الكهف.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 502.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 145.

نكتةُ التعبير بـ ﴿إِلَى﴾ دون اللام في قوله: ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾:

الإيـــواء إلى الـكـهـف غـايـة ينتهي إليها أمر فرار الفتية

آثر القرآنُ التعبير بـ ﴿إِلَى﴾ دون اللام في قوله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾؛ لأن الإيواء إلى الكهف غاية ينتهي إليها أمرهم؛ لأنهم طوِردوا من قومهم حتى آووا إلى الكهف، بخلاف التعبير باللام الذي يدل على الاختصاص، ويكون المعنى أنهم اختصوا الكهف بالإيواء لذات الكهف، وهذا غير مراد؛ لأنهم آووا إلى الكهف خشية أن يُفْتَنوا في دينهم.

دلالةُ تعريفِ في قولِهِ: ﴿ٱلْكَهْفِ﴾:

احتمالُ العهدية والجنسية

يجوزُ أنْ يكونَ تعريفُ ﴿ٱلْكَهْفِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ تعريفَ العهدِ؛ بأنْ كانَ الكهفُ معهودًا عندَهم يتعبَّدونَ فيهِ مِنْ قبلُ، أي: فأْووا وانصرفوا إلى الكهفِ المعهودِ ملتجِئينَ إلى ربِّكم مِنْ خوفِ عدوِّكم متوكِّلينَ عليهِ في رزقِكم ومَعاشِكم[1]، ويجوزُ أنْ يكونَ للجنس، والمعنى: فأْووا إلى كهفٍ مِنَ الكُهوفِ[2].

سر التعبير بالكهف دون الغار:

الـكـهـف المـكـان المتّسع داخـل الـجـبـل، ولا يـطـلـق إلا على الغار في الجبل

آثر القرآنُ التعبير بالكهف في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ دون الغار؛ لوجود فرق بينهما، فالكهف لا يطلق إلا على الغار في الجبل وجمعه كهوف، بخلاف الغار فيطلق على المكان المنهبط من الأرض، وعلى الغار في الجبل؛ فهو أعم من الكهف، قال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ [التوبة: 57][3].

وأيضاً؛ لأن الكهف يطلق على المكان المتّسع داخل الجبل؛ فإن لم يتسع فيطلق على الغار.

(1) علوان، الفواتح الإلهية: 1/ 473.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 277.
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات: (غور، كهف).

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ المجزومِ ﴿يَنشُرْ﴾:

مَنْ قَوِيَ رجاؤُهُ في اللهِ وثِقَ بحصولِ مطلوبِه

آثر القرآن الكريم التعبيرَ بالفعلِ المضارعِ المجزوم ﴿يَنشُرْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ للدلالة على شدة ثقتهم بلطف ربهم، وظهر أثر ذلك بالرَّبطِ على قلوبهم المذكورِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: 14]؛ بما عَلِموا مِنْ قُدرتِهِ تعالى على كلِّ شيءٍ، وحمايتِهِ مَنْ لاذَ بهِ ولجأَ إليهِ، وعبدَهُ وتوكَّلَ عليهِ[1].

وفيه إشارة إلى تجدُّدِ فضل اللّه عليهم ورحمتِه بهم، مناسبة لطول المدة التي لبثوها في الكهف.

التعبير بصيغة النَّشر في قوله: ﴿يَنشُرْ﴾:

حسنُ ظنِّ أصحابِ الكهفِ بربِّهم

آثر القرآن الكريم التعبير عن مطلب فتية أصحاب الكهف بصورة الوثوق لحصول ما يريدون بصيغة النَّشر دون غيره؛ وذلك لصِدقِ إيمانِ الفِتْيةِ وحُسْنِ ظنِّهم بربِّهم ﷻ الذي لا حدودَ لهما، ولشدَّةِ ثقتِهم بلُطْفِ ربِّهم بهم ويقينهم به؛ فساقوا مطلوبَهم مَساقَ الحاصلِ الواقعِ[2]، وهو بسط من اللّه تعالى فيه معنى الامتداد والسطوع والشمول، الدالّ على ظِلالِ السَّعَةِ والبُحبوحةِ متلوَّةً بالرحمةِ التي وسعَتْ كلَّ شيءٍ.

بلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَنشُرْ﴾:

ذهابُ نفسِ السّامعِ في تقديرِهِ كلَّ مذهبٍ

لمّا كانَ صِدقُ إيمانِ الفِتْيةِ وحُسْنُ ظنِّهم بربِّهم ﷻ بالغًا الغايةَ حُذفَ مفعول الفعلِ ﴿يَنشُرْ﴾ في قولِهم: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، فلم يُقَل مثلًا: (يَنشُرْ لكُم الخيرَ)[3]؛ لتذهبَ نفسُ السّامعِ في تقديرِهِ كلَّ مذهبٍ ممكنٍ، وتتخيَّلَ ما شاءَتْ مِنَ الخيرِ والنّورِ والعطايا والمِنَحِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 24.
(2) أبو حيان البحر المحيط: 7/ 150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 277.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 211.

براعةُ الاستعارةِ في: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾:

تصوير المعقول بالمحسوس

تظهر بلاغة الاستعارة في قوله تعالى على لسان الفتية: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، إذ شُبِّهَ تعليقُ الصفة المتكرِّرُ بنَشْرِ الثَّوبِ في أنَّهُ لا يُبقي مِنَ الثَّوبِ شيئًا مَخْفيًّا[1]، فإذا الكهفُ فضاءٌ فسيحٌ رَحيبٌ تنتشرُ فيهِ الرَّحمةُ، وتتَّسعُ خُيوطُها، وتمتدُّ ظِلالُها، وتشملُهم بالرِّفقِ واللِّينِ والرَّخاءِ، ومَنْ تركَ شيئًا للّهِ عوَّضَهُ اللّهُ خيرًا منهُ.

دلالة تعلق النشر بالرحمة:

توفُّرُ تعلُّقِها بالمرحومينَ الفارّين إلى الله

تعلق الفعل ﴿يَنشُرْ﴾ بالرحمة في قوله: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ لأن الضّيقَ يقابلُهُ البَسْطُ والسَّعَةُ، ولذلكَ قالَ الفِتيةُ وهم واثقونَ برحمةِ اللّهِ، معتقِدونَ أنَّ الَّذي هاجروا إليهِ لن يُسلِمَهم ولن يَخذُلَهم، وسوفَ يوسِّعُ عليهم برحمتِهِ هذا الضّيقَ[2]، فالمراد بتعلق النَشْرِ بالرَّحمةِ: توفُّرُ تعلُّقِها بالمرحومينَ.

علَّةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَكُمْ﴾ في الموضعين:

العِنايةُ بالمقدَّمِ والتشويقُ للمؤخَّرِ

قدَّم القرآن الكريم الجارَّ والمجرورَ ﴿لَكُمْ﴾ مرَّتينِ – في مقام النَّشر والتهيئة – في قول الفتية المؤمنة: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾؛ إيذانًا مِنْ أوَّلِ الأمرِ بكونِ المؤخَّرِ مِنْ منافعِهم – إذ معنى ﴿لَكُمْ﴾: لأجلِكم – والتشويقِ إلى وُرودِهِ[3]، وإفادةِ الاختصاصِ[4] بالفتية الذين تضرعوا إلى اللّه تعالى بأن يبسط لهم ويوسع عليهم من رحمته في الدارين، فكان التقديم بمثابة الإعلان عن قبول مطلوبهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 277، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4503.

(2) الشعراوي، خواطر: 14/ 8856.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 211، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 211، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4503.

(4) صديق خان، فتح البيان: 8/ 21.

سرُّ التَّعبير بالربوبية دون الألوهية:

طلب الرِّعاية والإحسان

في تعبيرِ الفتيةِ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهم: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ - دونَ أنْ يقولوا: (يَنْشُرْ لكُم اللهُ) - إشارةٌ إلى أنَّهم حينَ تركوا سَعَةَ الدُّنيا وزينتَها ملتجِئينَ إلى الكهفِ المُظلِمِ الضيِّقِ قد استنُدوا إلى مالكِ أمرِهم الَّذي لم يزلْ يُحسِنُ إليهم[1]؛ لأنَّ لفظَ الرَّبِّ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ يُشيرُ إلى التربيةِ والتنميةِ شيئًا فشيئًا، وهو مناسبٌ لسياقِ طلبِ الرِّعايةِ والإحسانِ، وسياقِ الوُثوقِ بالكَلاءَةِ والحفظِ.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿رَبُّكُم﴾:

دلَّتِ الإضافة في قوله تعالى: ﴿رَبُّكُم﴾ على تشريفهم وعلو مكانتهم وشدة صلتهم بربهم.

وجهُ التعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾:

منشأُ السعة لرحمته تفضُّلُه سبحانَهُ

دَلَّ التعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قولِ الفِتْيةِ: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ على ابتداء الرحمة منه سبحانه تفضُّلًا وتكرُّمًا على أصحاب الكهف، وفي هذا هَضْمٌ مِنَ الفِتْيةِ لأنفُسِهم، وإسنادٌ للنِّعَمِ والهباتِ إلى مالكِها وواهبِها ﷻ، وتعليمٌ للعِبادِ بأنَّ استحقاقَ الجزاءِ برحمةِ اللهِ وفضلِهِ لا بسَعْيِ العبدِ وعملِهِ، والعبدُ الفَطِنُ يتعلَّقُ بالمعبودِ لا بالعِبادةِ.

ويجوز أن تكون ﴿مِّن﴾ تبعيضية، ويكون المعنى: وينشر لكم من بعض رحمته؛ لأن الله ﷻ لا حدود لرحمته لا كمًّا ولا كيفًا، وما يتعامل به الخلق هو جزء من الرحمة، ولا سيما أنَّ الأمر يتعلق بالفتية في الإيواء إلى الكهف.

سرُّ إيثارِ لفظِ (الرَّحمةِ) في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾:

لمّا أسلمَ الفِتْيةُ أمرَهم للهِ ﷻ، وتبرَّؤوا مِنْ حَوْلِهم وقوَّتِهم، ولجَؤوا إلى حَوْلِ اللهِ وقوَّتِهِ، وقَوِيَ رجاؤُهم بحصولِ مطلوبِهم؛ وهو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 24.

سلامةُ دينِهم، وسلامةُ دُنياهم ببَسْطِ الخيرِ لهم وتهيئةِ ما ينتفعونَ بهِ، وأسنَدوا فِعْلَ ذلكَ كلِّهِ إلى مالكِهم ومُربّيهم - عقَّبوا ببيانِ أنَّ منشأَ ذلكَ هو رحمتُهُ تعالى، فقالوا: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾[1]، ولم يقولوا مثلًا: (مِنْ فضلِهِ)، أو (مِنْ بركتِهِ)؛ لأن لفظ الرحمة لفظ عامٌّ وإطلاقاته في القرآن عديدة؛ فيطلق على الرزق، وعلى النصر، وعلى الفتح، وعلى العافية والتوفيق، إلى غير ذلك من المعاني التي ذكرها العلماء في المراد بالرحمة، وكلها مناسبة لسياق أصحاب الكهف في مكثهم وفي هجرتهم إلى الله، ولا يؤدي هذه المعاني إلا التعبير بلفظ الرحمة[2].

الرَّحمةِ من آثار الرُّبوبيَّةِ

نكتةُ إضافةِ الرَّحمةِ إليهِ تعالى:

أُضيفَتِ الرَّحمةُ إلى الرَّبِّ تنزَّهَ وتقدَّسَ في قولِ الفتيةِ: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ تأكيدًا لعِظَمِ شأنِها وفخامةِ أمرِها؛ بأنَّها الرَّحمةُ الصادرةُ عن مالكِ أمرِ العِبادِ ومُغدِّيهم بالنِّعَمِ السّابغةِ التي لا تنقطعُ عنهُم طرفةَ عَيْنٍ، وفي ذلكَ بَعْثٌ للطُّمأنينةِ والسَّكينةِ في نُفوسِ الفتيةِ الَّذينَ تركوا الدُّنيا وزينتَها ومَطاعمَها ومَشاربَها ولذّاتِها، وانقطعوا للحيِّ القيّومِ ربِّ العالمينَ، ولا يَضيعُ مَنْ كانَ في كَنَفِ الرَّحمةِ وظِلالِ الرُّبوبيَّةِ.

تفخيمُ شأنِ الرَّحمةِ وتعظيمُ أمرِها

معنى الواوِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَيُهَيِّئْ﴾:

دَلَّ التعبير بالواو في قوله تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ﴾ على أن الفتية لم يقتصروا في رجائِهم على طلبِ بَسْطِ الأمنِ ونحوِ ذلكَ مِنْ وُجوهِ الخيرِ الواسعةِ في قولِهم: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، بل ضمّوا إليهِ على سبيلِ العطفِ رجاءَ تهيئةِ أسبابِ ما ينتفعونَ بهِ وهم في حالِ الضّيقِ والحاجةِ، فقالوا: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

جمعُ تهيئةِ أسبابِ الانتفاعِ وبَسْطِ وُجوهِ الخيرِ

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 30.
(2) الدامغاني، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: (رحم).

سر التعبير بالتهيئة دون غيره:

التهيئةُ فيها معنى الإصلاح مع الإعداد

آثر القرآن الكريم التعبير بالتهيئة في قوله: ﴿وَيُهَيِّئْ﴾ دون الإعداد بأن يقول: (ويُعِدَّ لكم)؛ لأن التهيئة فيها معنى الإصلاح مع الإعداد، وهذا هو المناسب لحال أصحاب الكهف في لبثهم وإقامتهم فيه لهذه المدة الطويلة التى قد يطرأ عنها فساد أو عطب في أجسادهم؛ فكان التعبير بالتهيئة هو المناسب لتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال، وحركة الشمس عند طلوعها وعند غروبها.

دلالة التعبير بالمضارع ﴿وَيُهَيِّئْ﴾:

دلّ التعبير بالمضارع ﴿وَيُهَيِّئْ﴾ على تجدُّدِ التهيئة والإصلاح لأصحاب الكهف مع طول مقامهم، وفي هذا دليل على مزيد العناية والرعاية.

فائدةُ تكرارِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَكُمْ﴾:

مزيدُ العناية بحصولِ مطلوبِهم وتثبيتِ نفوسِهم

كُرِّرَ شِبْهُ الجملةِ ﴿لَكُمْ﴾ مرَّتين في قولِه تعالى: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾؛ لِما يترتَّبُ على التكرارِ مِنْ مزيدِ العنايةِ بحصولِ المطلوبِ - وهو بَسْطُ الخيرِ وتهيئةُ ما ينتفعونَ بهِ - لهم، ومزيدِ التثبيتِ لنفوسِهم على ما عزمَتْ عليهِ مِنَ الأويِّ إلى الكهفِ.

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾ على المفعول:

العنايةُ والتشويقُ ومراعاةُ الفاصلةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾ على المفعول به ﴿مِّرْفَقًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾؛ للعنايةِ بالمقدَّمِ؛ وهو أمرُهم الذي يريدونَ أنْ يُهيَّأَ منهُ ما ينتفعونَ بهِ، وللتشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ وهو المِرْفَقُ، إضافةً إلى ما يترتَّبُ على هذا التَّقديمِ مِنْ مراعاةِ الفاصلةِ.

علةُ اختيارِ لفظِ ﴿مِّرْفَقًا﴾ دونَ غيرِهِ:

اختار القرآن لفظَ المِرْفَقِ في فاصلةِ الآيةِ، في قول اللّه: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (ويُهيِّئْ لكُم مِنْ أمرِكم

مُعينًا)؛ لأنَّ لفظَ المِرْفَقِ عامٌّ يشملُ كلَّ وجوهِ الانتفاعِ والارتفاقِ، فيكونُ أنسبَ بقولِهِ: ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾؛ لأنَّ الأمرَ عامٌّ أيضًا، وهذا العمومُ يتلاءَمُ معَ مقامِ الافتقارِ والالتجاءِ الذي كانَ عليهِ هؤلاءِ الفِتيةُ؛ فقد فوَّضوا شأنَهم كلَّهُ للهِ تعالى في كل ما يحتاجون إليه في الدارين.

تناسبُ اللَّفظِ معَ مقامِ الافتقارِ والالتجاءِ

دلالةُ صيغةِ (مِفْعَلٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿مِّرْفَقًا﴾:

صيغةُ (مِفْعَلٍ) مِنْ صيَغِ اسمِ الآلةِ، فيكونُ ﴿مِّرْفَقًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ اسمَ آلةٍ لما يُرتفَقُ بهِ، أي: يُنتفَعُ بهِ، مِنَ الرِّفقِ بمعنى النَّفعِ، لا مِنَ الرِّفقِ الَّذي هو ضدُّ الخُشونةِ[1]، ويجوزُ أنْ يكونَ اسمًا مِنَ الرِّفقِ بمعنى النَّفعِ أيضًا؛ كالدِّرهمِ[2].

شمولُ كلِّ ما ينتفعُ بهِ أو يساعدُ على النفعِ

نكتةُ تنكيرِ ﴿مِّرْفَقًا﴾:

لمّا صدرَ كلامُ الفِتْيةِ عن نُفوسٍ غمرَها اليقينُ بحصولِ المأمولِ مِنَ اللهِ تعالى نكَّروا ﴿مِّرْفَقًا﴾ في قولِهم: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾؛ تفخيمًا لشأنِهِ وتعظيمًا؛ لأنَّهُ صادرٌ عمَّنْ لا حدودَ لفضلِهِ.

التَّفخيمِ والتَّعظيمِ

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾:

استُعيرَتْ تهيئةُ المِرْفَقِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ للإكرامِ بهِ والعنايةِ، تشبيهًا بتهيئةِ القِرى للضَّيفِ المُعتنى بهِ[3]، وعلى هذا تكونُ الاستعارةُ تصريحيَّةً تبعيَّةً.

تشبيهُ ما جعلهُ اللهُ من التيسيرِ والتسهيلِ بتهيئةِ القِرى للضَّيفِ

ويجوزُ أنْ تكونَ مكنيَّةً؛ بأنْ شُبِّهَ المِرْفَقُ بالقِرى الذي يُعَدُّ للضَّيفِ المُعتنى بهِ، ثمَّ حُذفَ المشبَّهُ بهِ؛ وهو القِرى، وأُبقيَ على شيءٍ مِنْ لوازمِهِ - وهو التَّهيئةُ - على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ.

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 31.
(2) النيسابوري، إيجاز البيان: 2/ 515.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 277.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاعتزال والمفارقة والهِجْران:

الهِجْرانُ أعمُّ، والمفارقةُ غالبةٌ في الأبدانِ، والاعتزالُ فيهِ انفرادٌ عن المخالطةِ

تشتركُ الكلماتُ الثلاثُ في أنَّ فيها مباينةَ شيءٍ ومتاركتَهُ، ثمَّ يُلحَظُ ما يأتي:

الاعتزالُ تارةً يكونُ في الظّاهرِ كالاعتزالِ بالبدنِ، وتارةً يكونُ في الباطنِ كالاعتزالِ في الاعتقادِ(1)، والاعتزالُ أيضًا: التَّباعدُ والانفرادُ عن مخالطةِ الشَّيءِ(2).

والمفارقةُ تكونُ بالأبدانِ أكثرَ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: 78](3).

والهَجْرُ والهِجْرانُ: إمّا بالبدنِ، أو باللِّسانِ، أو بالقلبِ، فقولُهُ تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34] كنايةٌ عن عدمِ قُرْبِهنَّ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: 30] هذا هَجْرٌ بالقلبِ، أو بالقلبِ واللِّسانِ، وقولُهُ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [المدثر: 5] حثٌّ على المفارقةِ بالوجوهِ كلِّها(4).

والحاصلُ: أنَّ الهِجرانَ أعمُّ مِنَ الاعتزالِ والمفارقةِ؛ لأنَّهُ يشملُ المتاركةَ بالبدنِ واللِّسانِ والقلبِ، وهما يختصّانِ بالمتاركةِ بالبدنِ والقلبِ، ويغلبُ استعمالُ المفارقةِ في الأبدانِ، وينفردُ الاعتزالُ بما فيهِ مِنَ الإشارةِ إلى معنى الانفرادِ عن مخالطةِ الشيءِ.

(أوى) و(لجأ) و(لاذ):

الأويُّ إلى الشَّيءِ: الانضمامُ إليهِ واتِّخاذُهُ مأوًى؛ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: 10]، وقولِهِ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ [هود:

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (عزل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.
(3) الراغب، المفردات: (فرق).
(4) الراغب، المفردات: (هجر).

43]، وآواهُ غيرُهُ يُؤْويهِ إيواءً إذا ضمَّهُ إليهِ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: 69][1].

اللَّوذُ واللُّجوءُ فيهما معنى طلبِ النُّصرةِ

والالتجاءُ واللُّجوءُ إلى الشَّيءِ: الاستنادُ إليهِ والاعتضادُ بهِ، ويقالُ: ألجأَ فلانًا، أي: عصمَهُ، ويقالُ: ألجأتُ فلانًا إلى الشَّيءِ إذا حصَّنتُهُ في ملجأٍ، واللَّجَأُ والمَلْجَأُ: المَعْقِلُ والمَلاذُ[2].

واللَّوْذُ بالشَّيءِ: الاستتارُ والتحصُّنُ بهِ، يقالُ: لاذَ بهِ إذا عاذَ بهِ، والمَلاذُ: المَلْجَأُ والحِصْنُ[3].

ويُلحَظُ من تتبُّعِ معاني هذهِ الكلماتِ - مع تقاربِها الشَّديدِ - أنَّ اللَّوذَ واللُّجوءَ فيهما معنى طلبِ النُّصرةِ ونحوِ ذلكَ مِنَ الشيءِ الَّذي يُلاذُ بهِ أو يُلجَأُ إليهِ.

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أوى).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (لجأ).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (لوذ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29 : المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-26-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»